

السوسيولوجيا
و الظاهرة الدينية في
الجزائر

الملخص

لم تربط السوسيولوجيا الجزائرية الظاهرة الدينية الا بالصراع الاجتماعي الطبقي المرتبط باديولوجيتين ، واحدة رجعية تقليدية و هي في طور الزوال كونها تمثل الماضي الاجتماعي مقارنة بالتاريخ الاوروي ، و اخرى تقدمية تمتلك المستقبل...

تمثل هذه الورقة جزءا من بحث واسع حول علاقة السوسيولوجيا بالمجتمع الجزائري ، و هو عبارة عن دراسة ميدانية اعتمدنا فيها على تقنية المقابلة . لقد اجري هذا البحث في اوساط مدرسي السوسيولوجيا في الجامعات الجزائرية باعتبارهم ممارسين للسوسيولوجيا و منتجين لها و تالفت عينة البحث من 28 حالة توزعت على خمس جامعات بالغرب الجزائري و هي : وهران ، مستغانم ، سيدي بلعباس ، تلمسان و معسكر . لقد حاول هذا البحث ان يقترب من السوسيولوجي الجزائري و ذلك قصد محاولة فهم و تفسير العلاقة السيئة بين الدين و السوسيولوجيا في الجزائر .

لقد أصبح الدين يستقطب أعدادا هائلة ومتزايدة من الناس ، و لم تحقق الحركات الدينية نجاحا سياسيا في التاريخ الحديث كما تفعل الان خاصة في المجتمعات الاسلامية حيث اصبح الدين يطوف فوق كل افاق الوجود و يظهر في كل نشاط ، و يوجه و يراقب كل فعل و تشهد المجتمعات العربية اليوم هروبا دينيا كبيرا كتعبير عن الازمة

الخانقة المتعددة الوجة التي يغرق فيها ، لقد اثبتت نتائج الدراسات الميدانية * اقبال كثير من افراد المجتمع على ممارسة العبادات والطقوس الدينية في الوقت الذي يعزفون فيه عن المشاركة الاجتماعية السياسية. اذن ان هذه الحركة الدينية متعددة الابعاد حيث تكتسح المجال الاجتماعي عبر موجات متتالية تغمر بالتدرج كل جوانب الحياة الاجتماعية من تعليم و اداب و اقتصاد و سياسة ، فكل المستويات (الفوقية و التحتية) اصبحت متأثرة بما . " انما حركة شاملة و ترفض ان ينحصر نشاطها في المجال الديني فقط ، و لا تقر بالفصل بين الدين و الحياة الاجتماعية بصورة عامة و تعتبر هذا الفصل موقفا غريبا لا يمت للاسلام باية صلة " (1)

لا يزال الفكر الاسلامي المعاصر يرفض اعادة تاويل النصوص المقدسة في ضوء حاجات تطور المجتمع " و ترفض كل التيارات الفكرية الاسلامية الشروع في انتاج ثورة ثقافية في اطار الفكر الديني نفسه على غرار ما حدث عندما اعيد تاويل المسيحية في الغرب لجعلها تتناسب مع حاجات التطور الراسمالي " (2)

لقد اصبح الاسلام يشكل مركز صراع قوى في المجتمع و يدور حوله سجال عنيف — و تختلف حوله المواقف من النقيض الى النقيض ، فهناك من يعتبر الاسلام السبب الاول في التخلف و الازمة و الاستبداد ، و يدعو الى تهميشه و ابعاده عن مراكز القرار على كل المستويات في المجتمع ، و هذا شرط اساسي يمكن من بناء تقدم اجتماعي و سياسي ، و هناك من يعتقد بان الاسلام يمثل القوة الكبرى في المجتمع ، و ان كل التخلف الذي يعاني منه المجتمع سببه يأتي من الابتعاد عن الاسلام ، و يدعو هذا التيار بمختلف قواه و توجهاته الى تطبيق الشريعة الاسلامية و العودة الى الدين للخروج من الوضع الراهن ، و بدون هذا الشرط سيظل المجتمع يعاني من الاحتواء و الضياع و التبعية ..

لقد جعل هذا الواقع المبني على الصدام الايديولوجي و السياسي و الديني الاسلام موضوع خلاف عميق و عنيف حتى اصبح من الصعب مقارنة موضوع الاسلام او التفكير في

واقعه و مستقبله و مصيره هذا من جهة و من جهة اخرى لا يمكن تقديم قراءة للمجتمع بعيدا عن الاسلام ، او دون التفكير او التأمل في مشكلة الموقف من الاسلام ، ان المواقف المتباينة و المتناقضة بشدة من حول الاسلام لم تعد مجرد تفسير حركية او ترجمات بسيطة لتأويلات متنوعة كما كان عليه الامر في السابق و في الماضي اي لم تعد تعبر عن خلافات ايجابية و مثيرة داخل الوحدة و .انما عن مشكلة حقيقة تتمثل في علاقة المجتمع بالدين .

ان المواقف المتباينة تشكل حقيقة واقع المجتمع في تجربته الدينية و يعيش المجتمع في الحاضر انفجارا عنيفا للمسألة الدينية " لقد تعدت الظواهر الدينية مجال الدين و مست القضايا السياسية و حتى الاقتصادية " (3)

و يقول اميل دوركايم " يمثل الدين مجالا من الانشطة و الاشكال و الرموز في منتهى الهمية بالنسبة الى الافراد و الجماعات .. و تحمل الظاهرة الدينية في طياتها عناصر حيوية و تصورات محركة لعمليات النشاط في الميادين المختلفة " (4)

لقد اعطى الانتشار الديني خلال العقدين الماضيين الظاهرة الدينية حصانة مطلقة و سلطة طاغية ضد اي محاولة لفهمها او تفسيرها بعيدا عن الاعجاب او التملق او الحذر ، و فضلت الايديولوجيات التي تحكمتم لعشرات السنين في مصير البحث العلمي الجوانب الاقتصادية و الاجتماعية ، على الجوانب الدينية و الثقافية " (5)

يفسر هذا الواقع الى حد كبير ظاهرة خوف السوسيولوجيا من تناول موضوع الدين و حتى ان ظهرت بعض الدراسات التي من المفروض ان تطرح الموضوع من جانبه الفلسفي و الاجتماعي و السوسيولوجي الذي يتناول الظاهرة الدينية كظاهرة اجتماعية الا انها غرقت في المنهج الفقهي* و الاخلاقي و قليلون* هم الذين حاولوا طرح موضوع الدين كاشكال في المجتمع، و يرى دوركايم في كتاباته المتصلة باشكالية العلاقة بين الفكر الديني و الواقع " ان التصورات و الرموز الدينية ليست بديلا عن قوى اخرى خارج فضاء العلاقات الاجتماعية كالقوى الطبيعية و انما هي تصورات و رموز للنسيج الاجتماعي

على المستويين المادي و الفكري و بالتالي يمكن اعتبار هذه التصورات و الرموز عناصر تكوينية مكونة لبنى المجتمع و هياكله تختمها طبيعة الحياة الاجتماعية " (6)

يتحدد الفهم السوسيولوجي للدين بكل ماله علاقة بفهم الناس و وعيهم و ممارساتهم و تعاملهم مع الدين و ليس بما هو مطلق و صامت و مقدس في الدين ، و يركز الفهم السوسيولوجي للدين على التجليات و الممارسات و التاويلات التي تتفاعل مع الاماكن و الازمنة و مراحل التطور الاجتماعي / الاقتصادي في المجتمع ، و هي تفاعلات تتشابك و تتداخل بشانها مجموعة من العوامل الاجتماعية (الفردية و الجماعية) و السياسية (السلطة السياسية المختلفة المتفاعلة) و الحضارية (الأصيلة و الدخيلة) ... الخ

لقد عرف المجتمع الجزائري حركية دينية واسعة ، و اصبح الاسلام السياسي قادرا على تاطير المجتمع ايدولوجيا ، و جعلت هذه الديناميكية السياسة المجتمع امام انقلاب عميق في المفاهيم السياسية و الاجتماعية اكثر من اي مجتمع عربي اخر و مع ذلك لا نلاحظ اهتماما كبيرا للسوسيولوجيين بالظاهرة الدينية ، لقد طرحنا السؤال التالي على افراد عينة البحث : لماذا لم تهم السوسيولوجيا بالمجال الديني في الجزائر ؟ ..

تقول احدى الحالات " لم تنتبه السوسيولوجيا في الجزائر في الفترة السابقة فترة برامج التنمية الى اشكالية الدين و لا نعثر على دراسة واحدة تناولت الدين كمحرك سياسي في مجتمعنا او تنبأت بهذا الواقع الذي نعيشه لقد فهمت السوسيولوجيا الدين في المجتمع الجزائري كما فهمت السوسيولوجيا الدين في المجتمعات الغربية . " (7)

لقد ظل " المخيال السوسيولوجي " تحت ضغط التصورات الايدولوجية يشير الى ان اختفاء رجل الدين سيتحقق لاحقا، و ظلت الاشكال العقلانية المختلفة للسوسيولوجيا تشاهد ما تريد مشاهدته بعيدا عن الواقع و صراعاته و بهذا برر الفكر السوسيولوجي "

الغياب المستمر للدين " من الساحة في كثير من الاحيان بتركيزه على اشكالات اخرى دون الالتفات الى حضور الظواهر الدينية .

لم تربط السوسيولوجيا الجزائرية الظاهرة الدينية الا بالصراع الاجتماعي الطبقي المرتبط باديولوجيتين ، واحدة رجعية تقليدية و هي في طور الزوال كونها تمثل الماضي الاجتماعي مقارنة بالتاريخ الاوروبي ، و اخرى تقدمية تمتلك المستقبل و هي مؤهلة و حدها للقضاء على الايديولوجية الدينية ، و بشكل عام نظرت السوسيولوجيا الى حتمية اندثار الايديولوجية الدينية و احلال المجتمع الحديث بالمقاييس الغربية كمسلمة و كنتيجة للتطور المادي و تطور مجال الانتاج في المجتمع.

ان الفكر السوسيولوجي كان يعتقد ببساطة ان المشاكل الاقتصادية و الاجتماعية المعروفة ، و ان المهام المعقدة للتنمية سوف تقلص تدريجيا من مكانة الدين في الضمير الجمعي ، ليصبح في النهاية قضية شخصية بحتة ، تماما مثلما حدث في مجتمعات اخرى و بخاصة المجتمعات الغربية البرجوازية.

يقول على الكتر : " من كان يظن بان مصر الثمانينات سوف تواجه كمجتمع و كدولة تلك المسالة التي اصبحت محورية اي القوى الاسلامية و ان سيد قطب في مواجهته لجمال عبد الناصر سيصبح يوما شهيد الجماهير العربية ، و ان حزب (الاخوان المسلمين) سيحظى في يوم ما في اوساط بعض الشباب الجزائري بمعرفة تفوق بكثير معرفته لتاريخ جبهة التحرير الوطني " (8)

تقول حالة اخرى : " من الضروري ان تراجع السوسيولوجيا موقفها المعرفي اتجاه العقلانية الغربية ، و من دون اعادة التفكير في علاقة الدين بالمجتمع ، و تقديم قراءة نقدية للتجربة السوسيولوجية الغربية ، لا يمكن للسوسيولوجيا ان تفهم الواقع الديني بظواهره المختلفة " (9) لقد تسرعت السوسيولوجيا عندما اكدت حضور الطبقات و فئاتها من البروليتاريا المرتبطة بفائض القيمة الى البرجوازية المالكة لوسائل الانتاج و البرجوازية الصغيرة التي لا

موقف لها داخل الحركات الاجتماعية و السياسة لقد تمت هذه التقسيمات الاجتماعية دون مساءلة المنطلقات النظرية او المفاهيم المرجعية المستعملة ، و قامت السوسيولوجيا بالمعينة دون التفكير في مدى صحة و قابلية تلك الادوات ، حيث اصبحت نظرية الطبقات مرجعا وحيدا ، و اصبحتنا نشاهد الطبقات الاجتماعية حيث لم تكن موجودة . " ان المسلك الذي سلكه الباحثون العرب هو مسلك مسدود من دون منفذ ، علينا اخذ الواقع كما هو موجود ، و على الفكر العقلاني ان يعيد النظر في افتراضاته و منطلقاته النظرية بل حتى في اشكالياته و منهجيته ، و بهذا فقط يمكن ضبط الواقع "ليتمكن الفكر الاسلامي او العربي من انتاج رؤية نقدية حول علاقة الدين بالمجتمع كما حصل في الحضارة الغربية التي تمتلك تراثا علميا غزيرا فيما يتعلق بالدراسات الاجتماعية للظاهرة الدينية الذي بدأ اساسا من طرح عقلاني مرتبط بظهور الفكر العلماني و التشكيكي في كل من فرنسا و انجلترا في القرن الثامن عشر و الذي تناول المسألة الدينية تناولا علمانيا بحثا و اخضع كل ماهو ديني و روحي و غيبي الى اليات تحليل عقلانية تنفي مبدا التصورات الغيبية .

" لقد لجأ الفكر الاسلامي الى منهج يستند الى التمييز بين الاجتهاد و الابداع ، فاذا كان الحكم الذي يتوصل اليه المفكر المجتهد مفاده ان التغييرات المعينة لا تخالف الدين اصبحت من الممكن تبريرها من خلال تاويل يعتمد على منهج الاجتهاد اما التصورات التي لا تنال رحمة الاجتهاد هي في راي مفكري العصور . (بدعة و كفر مطلق) و لا يتساءل هذا الفكر عن الاسباب الموضوعية اي (حركية المجتمع) التي ادت الى ظهور هذه " البدعة " المزعومة " لم يتوصل الفكر الاجتماعي الاسلامي الحديث المعاصر الى مرحلة التمييز بين الدين كعقيدة و الدين كظاهرة اجتماعية ، ان هذا الفصل المنهجي يجعل من علم الاجتماع مثالا يتناول ما انتجه الدين من حركية اجتماعية في المجتمع و ذلك بتفاعل الدين مع المجتمع من موقع تشبع الحركية الدينية في المجتمع حيث لا يهتم البحث السوسيولوجي

بالتوابت العقائدية بل يهتم بالمتغيرات التي تخص دور الدين في مجتمع معين و في عصر معين ، و هنا لا يتحدث الباحث عن الدين في ذاته ، بل يتحدث عن الناس الذين يعتقدون هذا الدين.

"لقد ظلت المعرفة الاجتماعية الاسلامية مكتفية بالتراث الفقهي و ما توصل اليه السلف في باب الاجتهاد و حتى عندما شعرت هذه المعرفة باكتساح الساحة من طرف قوى العلم و الحداثة ، لم تقم بمساهمات و تجديدات فقهية و لا عقائدية تذكر، و انما حاولت تقديم جملة من الضوابط السياسية العامة يمكن ان يتبعها المسلمون سواء على مستوى الفكر او على مستوى السلوك و المعاملات ، و من شان هذه السياسية العامة ان تقترب من صياغة مثل عليا تمكن المسلم من التلاؤم و الاندماج في عالم لم يعد العالم الذي اعتاد عليه "(10) لم يتمكن المجتمع الجزائري على غرار سائر المجتمعات الاسلامية من انتاج حداثة و عقلنة في الممارسات الاجتماعية و ظلت البنية الاجتماعية مرتبطة بمعطيات المجتمع التقليدي الذي الذي تسيطر عليه عادة ممارسات مرتبطة بالفهم الغيبي و الطقوسية تاخذ العقلانية حيزا ضيقا في الممارسات و العلاقات و العمل .

تنغمس الحياة الاجتماعية في المجتمع الجزائري في الدين و ترتبط الحركية الاجتماعية بمنطق تقليدي لدرجة كبيرة بدءا من العائلة الى الجماعة الى الدولة و يتعلق بالدين كثير من الاحكام و التشريعات و الاخلاق و المعايير ، و بهذا يصبح الدين مادة اساسية يجب الاقتراب منها لمحاولة فهم حركة المجتمع " ان الانفجار العنيف للظاهرة الدينية في المجتمع لم يصب المجال الديني فقط و انما انتقلت تاثيراته الى القضايا الاقتصادية و السياسية و الثقافية "

" (11)

ان الدراسات التي تناولت الدين في المجتمع لم تتعد عن الاحكام القيمية الاخلاقية و هذا الجانب يبتعد عن المنهج السوسيولوجي حيث تنطلق هذه الدراسات من النصوص الدينية و من واقع المجتمع ثم تحاول ان تفهم المسافة بينهما و تعيينها و في الاخير تدعو المجتمع الى

الاقترب من النص المقدس ، بينما يبحث علم اجتماع الدين او دراسة الدين بالمنهج السوسيولوجي من واقع علاقة الدين بالمجتمع ليس من ما يجب ان تكون عليه هذه العلاقة اي ان الدين يرتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع و مؤسساته و يشارك في صياغتها ضمن عمليات التغيير الاجتماعي و له وظائف متعددة و يلبي حاجات ظاهرة و خفية.

ان الدين يمكن توظيفه من قبل الانظمة السياسية او استخدامه من قبل القوى السياسية المختلفة في مجالات متعددة لذلك يصبح من الصعب فهم طبيعة العلاقة بين الدين و المجتمع بعزلة عن الاوضاع الاجتماعية و الاقتصادية و السياسة التي عاشها و يعيشها هذا المجتمع من خلال تاريخه و تطرح صفة القداسة اشكالات كبيرة امام البحث العلمي لانها تمس بالافراد و الجماعات بشكل مباشر في شعورهم العقيدي و بهذا تظهر بعض العمليات الاجتماعية جانبا من القداسة عندما يوظف الدين من قبل القوى الاجتماعية المختلفة تقول احدى الحالات " لانكاد نعر على دراسة سوسيولوجية واحدة في المجتمع الجزائري ، تناولت الميدان بشكل واسع و قدمت لنا قراءة للمجتمع اعتمادا على نتائج الميدان ، هذا في الميادين التي نعتبرها سهلة التناول ، اما في ميادين اخرى مثل الدين فهذا امر يكاد يكون مستحيلا ، السوسيولوجيا لم تقترب من الدين لعدة اسباب منها اننا لا نمتلك سوسيولوجيين اهتموا بالظاهرة الدينية لان علم الاجتماع في الجزائر توجه بالاساس الى دراسات تنموية على قلتها و رداءتها ثم ان الجامعة الجزائرية لم تكون هذا النوع من الباحثين و كذلك ان علم الاجتماع في الجزائر عاش في علاقة سيئة مع كل ما هو ديني ، فلا نلاحظ توفر باحثين سوسيولوجيين يمتلكون دراية كبيرة بالتراث الديني الاسلامي كون ان اغلب الجيل الاول من السوسيولوجيين الجزائريين تخرجوا من المدرسة الفرنسية و اغلبهم لا يتقن اللغة العربية و هي وسيلة ضرورية لقراءة التراث الاسلامي " (12).

تشير هذه الحالة الى واقع البحوث السوسيولوجية الرديئة في كل المجالات ، حتى انها تشكك في وجود بحوث بالمقاييس السوسيولوجية المنبثقة من الميدان و تنبه الى ان علم

الاجتماع في الجزائر لم يبن علاقة مع المحيط الاجتماعي كونه لم ينتبه الى الظواهر الدينية او تجاهلها ، ثم ان برامج علم الاجتماع لم تتضمن توجيهها نحو دراسة الحقل الديني و حتى مادة علم اجتماع الاسلام التي ادخلت في سنوات التسعينيات الى برامج التدريس لم تدخل من باب محاولة معرفة المجتمع و دراسة ظواهره الدينية بقدر ما جاءت لنتج نوعا من التوازن الايديولوجي داخل هذه البرامج كون ان مطلب ادخالها ارتبط اساسا بصراع ايديولوجي حول البرامج و لم يرتبط بضرورة تنويع المناهج و الاهتمام الواسع باشكالات المجتمع.

و تشير حالة اخرى الى " ان البحث السوسيولوجي في المجتمع الجزائري لم ينتج تماما قواعد منهجية لدراسة الظاهرة الدينية مع ما لهذه الظاهرة من ثقل في هذا المجتمع بشكل خاص حيث يعيش انقلابا جذريا فالذي يعرف المجتمع الجزائري في السبعينيات يلاحظ التغيرات التي طرأت عليه و يلاحظ مدى تأثير الظواهر الدينية في كل المجالات بدءا من الممارسات المرتبطة بالطقوس و العبادات ، الى الهندام ، الى العلاقات الاجتماعية بشكل عام ، ان السوسيولوجيا لا تزال بعيدة عن هذا المجال ، بل لم تقترب منه اطلاقا " (13). و في هذا الاطار نجد تركيزا على ان الاعتماد على اللغة الفرنسية كوسيلة فاعلة في البحث السوسيولوجي في الجزائر ابعد السوسيولوجيا عن دراسة التراث بشكل عام و ابعدها عن الدراسات الدينية بشكل خاص كون ان اغلب الباحثين المفرنسين يتعدون عن هذا التوجه في البحث لما يجدونه من صعوبات لغوية في التعامل مع التراث .

ان هذا الامر يطرح اكثر من سؤال على حقل السوسيولوجيا حيث ان البحث في مجال الدين في اوربا مثلا ، قد انتقل الى مرحلة ثانية حيث بدات السوسيولوجيا تطرح اشكالات جديدة مثل وظائف الدين في علاقتها الايجابية مع المجتمع ، او ضرورة تواجد الدين ، و اصبحت تبعد عن منهج الصراع الذي عايشته السوسيولوجيا في مواجهتها للدين و اعتباره مجموعة من القيم المرتبطة بالمجتمع التقليدي و بدات هذه السوسيولوجيا

تقدم قراءات جديدة لما قدمه رواد السوسيوولوجيا امثال دوركايم او ماكس قير لقد
اصبحت نظرية تراجع الدين و تقدم العلم موضوع اعادة نظر و اصبح التركيز اليوم على
"الحاجة الى الدين" التي تخدم المجتمعات الغربية ، و تعالج جزاء من ازمتها المختلفة ، و
كذلك على الطلب الروحاني الذي بدا يظهر بهذه المجتمعات على عدة اشكال ، وهكذا
اصبح الحديث عن " عودة الدين او تحديد المقدس و اصبح النقاش ينحصر في ثنائية تراجع
الدين ام عودة الدين ، و يعتبر البعض ان عودة الدين اذا ما وجدت فهي مجرد نكوص و
لا عقلانية ، كما يحدث كذلك في كل الفترات المتميزة بالقلق و الحيرة و الازمات ، اما
البعض الاخر فيعتبر ان هذه العودة تدل على ذلك البعد الديني للانسانية الذي يعبر كل
الانتصارات الوهمية للعقل و الوضعية ، و بين هذين التيارين نجد محاولات متنوعة تريد اما
اظهار بؤس هذه الحملة الدينية و ضعف قوتها التجديدية او عقلنة فرضية "عودة المكبوت
الديني" في مجتمعات كانت تظن او تتمنى ان تكون معلمنة « laïcisée » و هكذا تعود
اشكالية دوركايم حول الدين حين يرى بان العلم غير قادر على الاجابة عن الحاجات
الطقوسية المرتبطة بكل حياة اجتماعية (و هذه المسألة ليست من وظائف العلم) و قد
حاول ان يتصور ما سيكون عليه (دين الانسان) كبديل وظيفي " للديانة التقليدية " و
الذي يمكن ان يستمر في التعبير عن نفسه بكيفية رمزية و استعارية و هذه الديانة الجديدة
الحاملة للقيم الانسانية السامية لا تتطلب اية كنيسة و لا اي تنظيم "(14) هذا علما ان
اشكالية الدين في الغرب طرحت بصورة واضحة و متطورة حتى عند الرواد حيث تتميز
اشكالية " ماكس فيبر " حول مستقبل الدين في الحداثة التفاضلية التطورية و يؤكد من
منظور مختلف عن ما كان يطرح في النظريات الكلاسيكية السوسولوجية .

ان مسألة الديانات التعويضية تتأثر بانتصار العقلانية و فقدان العالم لسحرته و غرابته "
لقد تحولت معاني الدين * و اصبحت حاضرة في الفن و السياسة و الاستمتاع بالجسد و
العلم في العالم الحديث و اصبحت المعاني في هذه المجالات تثير سلوكيات زهدية و

طقوسية و حتى تجارب صوفية مثلها مثل الاعتقاد الديني التقليدي ان ظهور اشكال جديدة للدين تغزو المجال الاجتماعي الذي اصبح متحررا من وصاية الديانات التقليدية" (15)

و من بين الوظائف التي يركز عليها الفكر السوسيولوجي في الغرب يمكن ذكر مايلي:
يؤدي الدين جملة من الوظائف الانتمائية المهمة في الغالب و تتمثل في البدء في تحديد علاقة الانسان بنفسه لانتاج قناعات معينة في بناء سوسيولوجي محدد و مؤطر بمفاهيم .
قد تنتج توازنا عند الفرد بين مجموعات معينة في المجتمع .

2/ يمنح الدين للانسان الشعور بالانتماء الى الماضي البعيد و الى المستقبل اللامتناهي
3/ ان التذكير بافاق الحياة بعد الموت من شأنه ان يوفر للناس العون و المواساة و المصالحة ، مما يجعلهم قادرين على التجادل مع متطلبات المجتمع ، و يحول دون اليأس من القيم و الاهداف القائمة ، فالدين بتاكيد على تجاوز الوضع الراهن و على وجود حياة اخرى ، ربما اهم من الحياة التي يعيشها الافراد في الحاضر ، و يوفر للانسان وضعاً يتسم بالانفتاح الذي يقيم مصالحة بين الانسان و الواقع بمشكلاته المختلفة و العويصة .

4/ يقوم الدين بربط الفرد بالمجموعة فيقدم له العون المعنوي و هو بمثابة آلة تعديل و ضبط و رقابة في الوقت نفسه ، الية تعدل جملة التوازنات الممكنة و في هذا المعنى يمكن قراءة التناول الماركسي للدين و الذي مفاده ان الدين جملة من المنظومات القيمة التي تمنع الصراع البناء و تقوم باحباط قوى التجديد و الثورة* .

لقد ركزت النظريات السوسيولوجية في المجتمعات الغربية منذ ظهورها كنسق معرفي جديد على الاشكالات التي يطرحها الدين على الواقع و بالتالي حاولت فهم ما يفرزه الدين في المجتمع من دون سلوكيات و ظواهر ، وظل هذا النقاش يتطور بتطور الفكر السوسيولوجي الذي يعيش علاقة غير تصادمية مع الواقع الاجتماعي الذي ينتجه اما في المجتمعات التقليدية فالوضع يختلف تماما .

تقول احدى الحالات : " تربت السوسيولوجيا في مجتمعا و كما هو الحال في اغلب مجتمعات العالم الثالث على المعطيات النظرية الماركسية ، و المنهج المادي التاريخي الذي نظر الى الدين على انه عامل من عوامل انتاج التخلف ، و كل ابعاد للاديولوجيات المرتبطة بالدين هو خطوة نحو ابعاد التخلف ، و بهذا على قلة نشاط السوسيولوجيا في هذه المجتمعات كونها لم تتمكن من خلق علاقة جيدة مع المجتمع ، فان دراسة الدين تاتي ربما في المرتبة الاخيرة ، و ذلك لاسباب تكاد تكون معروفة من بينها الخوف من التعرض للمقدس في غياب مساحة من الحرية تسمح بذلك " (16)

فيما سبق حاولنا ان نقف على الاشكالات التي يطرحها الفكر السوسيولوجي الغربي و هو يتناول الدين و الظواهر الدينية ، و لاحظنا تطورا في اشكالياته، اما في المجتمعات العربية فلا يمكن ان نضع ايدينا حتى على البدايات التأسيسية لهذا النوع من الدراسات . تركز عينة بحثنا على ازمة فكرية حادة تحتاج واقع العلوم الاجتماعية و علم الاجتماع بشكل خاص ، و تشير 21 حالة الى ان علم الاجتماع لم يتمكن من تجاوز الدراسات الفقهية في المجال الديني و لا زالت معايير فهم الظواهر الدينية تخضع لمجال الفقه ، و لهذا لا زال الفقيه يقوم بدور فعال في المجتمع سواء في مستوى انتاج المفاهيم المرتبطة بعلاقة الدين بالمجتمع و بتفسيرها او على مستوى التأثير في اعادة انتاج الفكر التقليدي و تجديده تحت ضغط معطيات التحديث في المجتمع .

تقول احدى الحالات : " الدين يغرق المجتمع و يتجلى في كل شيء ، و لا يقابل هذا اي تفسير هناك فراغ كبير ، اذن هناك الفقه (و اي فقه) هو الذي يقوم بمهمة تفسير ظاهرة توزع الدين في مختلف المجالات

ان الواقع لم يتمكن من اخراج اليات و مناهج قادرة على الاحلال محل الفقه ، و علم الاجتماع لا يزال بعيدا عن تناول هذا المجال بمنطق المنهج السوسيولوجي " (17)

ان بنية منتجي السوسيولوجيا في الجزائر لا توحى بان اهتماما بالظواهر الدينية سيظهر على السطح قريبا ، لان هذا الاختصاص يتطلب اقترابا و ادراكا للتراث الديني الاسلامي ، و هذا ما يغيب في بنية تكون منتجي السوسيولوجيا في الجزائر ، و ذلك لان اغلب جيل الذين يكتبون الان في المجال السوسيولوجي يرتبط بالمدرسة السوسيولوجية الفرنسية و هم متأثرون باشكالاتها و يعانون من اغتراب معرفي كبير لا نحو مجتمعاتهم و تراثهم . لقد تمكنا من استخراج مجموعة من الاحكام من قراءتنا لمضمون المقابلات حول مسألة مدى اقتراب السوسيولوجيا من دراسة الظواهر الدينية في الجزائر ، فكانت على الشكل التالي :

28 حالة	لم تتمكن السوسيولوجيا من دراسة الظواهر الدينية .
منها 22 حالة	السوسيولوجيا في طور البحث عن منهج للوصول الى دراسة الدين .
7 حالات	لا يمكن للمنهج السوسيولوجي الغربي في دراسة الدين ان يفهم الظواهر الدينية في العالم الاسلامي .
حالة واحدة	السوسيولوجيا الغربية يجب ان تفهم من قبل علم الاجتماع الاسلامي و ليس العكس .

تؤكد نتائج البحث الميداني واقع البحث في مجال الدين في الجزائر ، حيث ان دراسة بسيطة لببليوغرافية سوسيولوجية الدين تجعلنا نلاحظ الغياب الكلي لدراسات سوسيولوجية تناولت ظاهرة الدين ، و هذه معرفة قد نحصل عليها من خلال واقع النصوص المكتوبة حول الدين و محاولة ترتيبها و فرزها و الخروج بنتيجة من وراء هذا العمل ، لكن عملنا كان يرحى من ورائه طرح السؤال : لماذا تبتعد السوسيولوجيا عن مجال الدين ؟ و نستقي اجوبة من الممارسين للسوسيولوجيا و كانت النتيجة ان علم الاجتماع لم يتمكن من تناول الظواهر البسيطة التي لا تحمل كثيرا من حساسيات المجتمع فكيف له ان يقترب من ظواهر تدخل ضمن اطار المقدس .

المقدمات:

* انظر :

- احمد جمال ظاهر : الشباب العربي - دراسة نموذج من شباب الاردن.
- عاطف العقلة عضيات : الاغتراب و صراع القيم في محيط الشباب العربي دراسة ميدانية.

المستقبل العربي، السنة التاسعة ، العدد 92 ، أكتوبر 1986. ص ص 26،42

1) علي الكتر : الدين في المجتمع العربي .مرجع سبق ذكره ص 92

2) سمير امين : الاجتهاد و الابداع في الثقافة العربية و امام تحديات العصر الدين في المجتمع العربي .مرجع سبق ذكره .ص : 624.

3) فؤاد زكريا : الصحة الاسلامية في ميزان العقل . دار التنوير ، بيروت 1985 ، ص 191

4) Emile Durkheim : les formes élémentaires de la vie religieuse : le système totémique en Australie. P.U.F paris 1968 P : 187

5) الدين في المجتمع العربي مرجع سبق ذكره.ص:227

* انظر : كتابات حسن البنا ، ابو الاعلى المودودي ، سيد قطب ،

كتابات معاصرة : حسن الترابي ، راشد الغنوشي ، يوسف القرضاوي ، محمد البهي ، حسن حنفي ، محمد الغزالي و غيرهم ...

* انظر : فرج فودة : قبل السقوط ، حوار هادئ حول تطبيق الشريعة الاسلامية

دار القلم : الكويت 1986 .

6) نفس المرجع : ص 213

7) الحالة رقم 3

8) علي الكتر: الدين في المجتمع العربي مرجع سبق ذكره ص 99

9) الحالة رقم : 09.

10) سمير امين : ازمة المجتمع العربي - دار المستقبل العربي القاهرة 1985 ص 73.

11) فؤاد زكرياء : الصحة الاسلامية في ميزان العقل دار العقل بيروت 1985 ص 112

12) الحالة رقم 13 .

13) الحالة رقم 28

14) محمد وقيددي ، العلوم الانسانية و الاديولوجية . دار الطليعة بيروت 1983 ص 47.

* الدين في المجتمع مرجع سبق ذكره ص : 131

15) E.Poulat.eglise contre bourgeoisie Introduction au devenir du
latholsime actuel Ed : Casterman . Paris 77 P173

* في وظائف الدين انظر : اكرم حجازي ، التحولات في انماط الخطاب الديني في المغرب العربي من الاسلام

الطرفي الى الاسلام السياسي . المجلة التاريخية المغربية عدد 95.69 مارس 1999. ص: 69.57

16) الحالة رقم : 26

17) الحالة رقم : 08.